في الأدب الشرقي

الادب الفارسي والادب العربي

للدكتور عبد الوهاب عزام

الاستاذ بكلية الآداب

٢

ولا ننسى بعد ـ أن اللغة الفارسية بقيت لغة الدواوين المالية في ايران حتى زمان عبد الملك بن مروان .

ولا ريب أن اللغة الفارسية بقيت لغة التخاطب في ايران بين العامة على الاقل، ولاسيما في القرى والنواحي البعيدة، فانا قد وجدناها منذ القرن الرابع ترتقي الى أن تكون لغة آداب ؛ واللغة لا تموت جملة واحدة ولا تخلق جملة واحدة على أن كثيراً من الدلائل يثبت انها كانت لغة الكلام في هذه الفترة أي قبل عصرها الادبي الحديث . وقد انتقلت منها كلمات كثيرة الى البلاد العربية مع النازحين من الفرس وتأثرت بها لهجات بعض العرب .

فرحل عبد الملك بن مروان الى المختار بن أبي عبيد حينما جاءوا معسكر ابن الاشتر لم يسمعوا كلمة عربية ، وعبد الله بن زياد وهو أمير عربي كانت فيه لكنة فارسية (أخذها من زوج أمه) — والفرس الذين عرفوا العربية لم يخلصوا من لغتهم ولهجتها — وقد روى الجاحظ أن الحجاج قال لنحاس فارسي : أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان ؟ فقال : «شريكاتنا في هوازها وشريكاتنا في مدائنها وكانجي» تكون». قال الحجاج : ويحك ما تقول ؟ فقال بعض من كان اعتاد سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك : يقول : شركاؤنا بالاهواز والمدائن يبعثون الينا بهذه الدواب فنحن نبيعها على وجوهها . وأبو مسلم الخراساني على فصاحته التي جعلت رؤبة ابن العجاج يقول ما رأيت أعجمياً أفصح منه — كان لا يستطيع النطق بالقاف — وقد روى المؤرخون أن ابراهيم الامام حينما أوصى أبا مسلم قال له : وان استطعت ألا تبقي في خراسان لساناً عربياً فافعل — مما يدلنا على أن لغة الجمهور هناك كانت فارسية . ونجد الشاعر العماني يتملح بذكر الألفاظ الفارسية في مدائح الرشيد

ويحدثنا الجاحظ أن لغة أهل البصرة بل لغة أهل المدينة كان بها كثير من الكلمات الفارسية في أيامه، مما يدلنا على بقاء الفارسية وتأثيرها البعيد . ويحدثنا أيضاً أنه سأل خادماً له الى من أرسل هذا الغلام ؟ فقال الى أصحاب السند نعالة يعني النعال السندية.

وأمثال هذا في كتب الأدب كثيرة . ولأمر ما ثار النزاع منذ أيام أبي حنيفة على قراءة القرآن بالفارسية . ثم بابك الخرمي كما يؤخذ من الفهرست كان لسانه متعقداً بالأعجمية، و (به آفريد) الفارسي المتنبي على عهد أبي مسلم لما أراد أن يضع لأتباعه كتاباً وضعه بالفارسية . وأنتم تعلمون ما دخل العربية من الفارسية لا سيما في أسماء الطعوم والاثاث . هذه جملة تثبت أن اللغة الفارسية لم تمت في هذه الفترة ان كان هذا في حاجة الى الاثبات .

وأبا الفرس أنفسهم فقد خلطهم الفتح والاسلام بالعرب، أي خلط، فالقبائل العربية انتشرت في الأرجاء الفارسية ، والفرس انتقلوا الى البلاد العربية أسارى أو مهاجرين طلباً للرزق أو العلم أو المناصب. فالمدينة على تأيها كان بها فرس، وهم قتلوا هنالك عمر وسعيد بن عثمان بن عفان .

وسرعان ما تعلم الفرس العربية وشاركوا في العلوم الاسلامية. ولكن كان للفرس قبل قيام الدولة العباسية حال تختلف عن حالهم بعدها كل الاختلاف.

كانت دولة الأمويين عربية وقليل من غير العرب من سموا فيها الى الدرجات العالية ، وكان العرب، لأنهم أصحاب الدين والدولة ولأنهم الذين أقاموا الملك ونشروا الدين ، يرون أنفسهم أجدر بالرياسة وأولى بالشرف على ما كان فيهم من الاعتداد بأنفسهم والفخر بأنسابهم منذ أيام الجاهلية . فسخط الفرس من أجل ذلك عليهم ، ولكن الفرس لم يكونوا قد أفاقوا من دهشة الفتح الاسلامي ولم يكونوا قد تمكنوا في الاسلام واللغة وامتزجوا بالعرب امتزاجا يمكنهم من منافسة العرب ، وما كان العرب قد ضعفوا وتغيروا وتفرقوا في الأقطار . بقي الفرس ساخطين فاستعان بهم الثائرون

على الأمويين ، فكانوا عونا للمختار بن أبي عبيد ولعبد الرحمن بن الاشعث . فكان جيش المختار من الموالي إلا قليلا . وقد غنب العرب عليه اذ استهان بالعنقاء من الموالي ثم أعطاهم حظهم في الغنائم . ولما قال رسل عبد الملك لابن الاشتر : أجئت تقاتل جيوش الشام بهؤلاء ؟ أجاب ما هؤلاء إلا أبناء أساورة الفرس .

واذا نظرنا الى أن جيش المختار كان أول من ثار للحسين بن علي وقتل من قتله عرفنا أحد الأسباب التي جمعت بين التشيع والفرس منذ أمد بعيد . فقد كان العلويون والفرس سواء في كراهة الامويين فتحابوا .

جاءت الدعوة العباسية وقد تهيأت الأسباب لأخذ الفرس مكانهم في الأمة الاسلامية فكانوا أخلص دعاة هذه الدولة واليهم يرجع الفضل في إقامتها . وقد رأى نصر بن سيار في هذه الدعوة خطرا على العرب والاسلام فقال فيما قال :

لعمري عن رحالك ثم قولي ... على الاسلام والعرب السلام

كانت الدعوة العباسية خليطا من الدين والعصبية القارسية فابو مسلم كان فارسيا ومسلما غيورا مخلصا . وقد أسلم من أجله كثير من دهاقين الفرس . وهو الذي قتل المتنبي الفارسي سنباذ (بآفريد) حين انتهز فرصة الدعوة فقام يحيي الزردشتية . وكان أبو مسلم قد دعاه من قبل فأسلم وسود . هذا المزج يتمثل حتى في تسمية أهل خراسان الرماح التي خرجوا بها لنصرة العباسيين : كافركوب - أي مضارب الكفار فهو اسم مركب من كلمة عربية متصلة بالدين ومن كلمة فارسية . ومما يتمثل به هنا قول بعض الشعراء :

ووقعي الاسنة والقنا ... وكافر كوبات لها عجر قفد

بايدي رجال ما كلاي كلامهم ... يسمونني مرداو ما أنا والمرد ؟

ومهما يكن فلا أخال البيروني قد أخطأ حين سمى الدولة العباسية « دولة خراسانية شرقية » .

كان للدعوة العباسية وما عقبها من قيام الدولة - نتائج كثيرة . وانما يعنينا منها ما يتعلق بالفرس . فقد انتعشت الآمال في نفوسهم . ومكنت لهم في الدولة وخلطتهم بالعرب خلطا تاما - وكان من مظاهر هذا الانتصار في بلاد الفرس ظهور دعوات دينية جديدة وثورات : (به آفريد) انتهز الفرصة لوضع دين قريب من الزردشتية . فاعجله أبو مسلم وقتله . وقد أعجب الفرس بأبي مسلم أيما اعجاب . فلما مات أنكر المسلمية موته وقالوا انه اختفى وسيجيء مهديا من بعد - ومنهم من قال انه نبي بعثه زردشت وإنه لم يمت كما لم يمت زردشت . وقد دعا الى هذا داعية في بلاد الترك يعرف باسم اسحاق التركي ولكنه فارسي . وقام صديق من أصدقاء أبي مسلم اسمه سنباذ يقول : ان أبا مسلم اختفى في صورة حمامة بيضاء . ثم يعلن أنه سيذهب لهدم الكعبة انتقاما لصديقه ، وقد جمع حوله زهاء مائة الف ولكن ثورته لم تلبث طويلا - وثلث ذلك ثورات يوسف البرم والمقنع الخراساني وعلي مزدك ، وبابك الخرمي ، وأكثرها مصحوب بذكرى أبي مسلم . ثم جاء القرامطة وفعلوا ما فعلوا وكان منهم ابن أبي زكريا الذي شرع لهم أن من أطفأ النار بيده قطعت يده ، ومن أطفأها بفمه قطع لسانه وهذا من أثر الزردشتية . كل هذه مظاهر تحتاج الى شرح واستقصاء ولها دلالتها على بقايا العصبية الدينية والجنسية في نفوس الفرس .

هذا في بلاد الفرس . وأما أثرهم في سياسة الدولة وفي حاضرة الاسلام بغداد فقد كان للفرس الرجحان على العرب عند الخلفاء منذ قيام الدولة . وقد بلغ الأمر غايته حين تنازع الأمين والمأمون . فكان المأمون في مرو من أقصى خراسان أشبه بخليفة فارسي . وقد أعانه الفرس على حرب أخيه الذي كان يعتز بالعرب .

وروى أن أول شعر فارسي نظم في مدح المأمون كان إذ ذاك .

فلما غلب المأمون تمت الغلبة للفرس ، ثم استمروا مسيطرين على الخلفاء حتى أذيل منهم لاتراك المعتصم ؛ حتى إذا قامت الدول الفارسية ملك بنو بويه بغداد الى أن كان طور السلطان التركي فأذيل منهم للسلاجقة .

ساس الفرس الدولة على قواعد الساسانيين ، وقلد الخلفاء وغيرهم الفرس في ملابسهم ومساكنهم وطعامهم وشرابهم ؛ أمر الخليفة المنصور أن تلبس القلنسوة الفارسية ، واتخذ هو ومن بعده الحلل المذهبة على الأساليب الفارسية ، وقد أبقى الزمن من نفود الخليفة المتوكل ما يظهر هذا الخليفة في مظهر فارسي كامل . ومن الكلمات الجامعة في هذا ما قاله المتوكل حين أراد اصلاح السنة المالية ورد النيروز إلى مكانه من العام فاحضر الموبذ ليستعين به ، فقال الخليفة قد كثر الخوض في ذلك ولست أتعدى رسوم الفرس . وسأله رأيه في الاصلاح .

« تتبع . . . »

لقـــاء !!

(بقية المنشور على صفحة ٢٠)

حتى إذا حان الرحيل هتفتُ بي ... فوقفتُ واستبقتُ خطاكَ نواظري

وصرختُ بالليل المودع باكياً ... والدمع يشفع لي وأنت مغادري

ياليتنا لم نصح منه وليتنا ... ما أيجعته رحى الزمان الدائر !

ولقد أتتْ بعدُ الليالي وانقضت ... وكأننا في الدهر لم نتزاور

بدلت من عطف لديك ورقة ... بحنين مهجور وقسوة هاجر

وكأنني ما كنتُ إلفك في الصبا ... يوماً ولم تلك في الحياة مناصري

ونسيتَ أنتَ ، ومانسيتُ وإنني ... لاعيش بالذكرى ، لعلك ذاكري !